

فصول مختصة في الفلسفة الألمانية

## ٢٠ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

النامية السليمة من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداو

- ١ -

كل جيل أو كل حضارة مرتبطة بسلسلة من القيم الاجتماعية تؤمن بأن هنالك شيئاً أسمى من شيء ، وأن عملاً أفضل من عمل ، وترى أن الحقيقة أسمى من الضلال ، وأن عاطفة الرأفة أفضل من عاطفة القسوة ، وواجب التاريخ البشري هو تمييز هذه القامات والفصل بينها ، لأن هذه القامات التطوية على التقاليد الاجتماعية هي التي تسيطر على حياة الأفراد والجماعات ، وتؤثر في كل أحكامنا ومناشأتنا . وجدير بها والحالة هذه أن تشغل عقل الفيلسوف وأن تستبد بأكثر عقله وفراغه

نظر نيتشه إلى هذه القامات وتأملها ملياً ، فجاءت نتيجة تأمله أن هذه القامات التي تتعاقب عليها الحياة الأوروبية اليوم لمه مقامات فاسدة يجب تنكيسها لأنها لا تصلح للبقاء ، وبهذا يتبدل مجرى حياتنا ، وتبيد هذه المكازات التي تتوكل عليها أحكامنا وأفكارنا . وقد ترى نيتشه - في أحد نوبات ألمه العنيف قبل ضياع عقله - ينذر بحراب مروع لهذه البشرية : « إنني أحلف لكم بأن الأرض ستتلوى متشنجة خلال طامين اثنين . . . إنني بنفسى قضاء وقدر »

إن الانسان الحالي يضع في قاعة « القيم الاجتماعية » عدداً من القيم المطلقة العالية التي لا يحسها سوء ولا يشرف عليها عقل ، ولا يتناول إليها نقاش ، وبواسطة هذه القيم يسي إلى تبيين الحقيقة . من هذه القيم المعروفة مثلاً عنصراً الخير والحقيقة . وقد بدأ حديثاً ترى أن تعبد الحقيقة والصدق هو رأس عقائدنا وإيماننا . فهايك أن المفكرين أنفسهم وقفوا مهيبين إزاء مسألة الخير والشر حين عرضت لهم ، وقد ظلوا مترددين أمامها ، راعين للتقاليد التي توارثوها عنها . « فكانت » قد افترض وجودها .

أستحسنه لأنى أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك في هذا الذي فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن تنشدي من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردى ، قلت : وكيف ؟ قال : لأن الشعر يبنى أن يكون مثل أشعار الفحول للتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فإن لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعري ، ولا سيما الأشعار التي في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به ، الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الزيادة والسامة ، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت : صدقت ، ثم أنشدني قصيدته :  
لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلخِرَابِ فَكَلُّكُمْ بِصِيرِ إِلَى تَبَابِ  
أَلَا يَأْمُوتُ لَمْ أَرْ مِنْكَ بُدَاً أَتَيْتَ وَمَا تَحْيِفُ وَمَا تَحْبَابِ  
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبي كَمَا هَجَمَ الشَّيْبُ عَلَى شَبَابِ  
قال : فصرت إلى أبي نواس فأعلمته ما دار بيننا ، فقال : والله ما أحسب في شعره مثل ما أنشدك بيتاً آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبي نواس ، فأنشدني قصيدته التي يقول فيها :

طُولُ التَّمَاشُرِ بَيْنَ النَّاسِ مَحْلُولٌ مَا لَبِنَ آدَمَ إِنْ فَتَشْتَ مَعْقُولُ  
يَا رَاعِي الشَّامِ لَا تَغْفُلْ رِطَابِهَا فَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا اسْتَرَعَيْتَ مَسْئُولُ  
إِنِّي لِنِي مَنْزِلٍ مَا زَلْتُ أَعْمَرَهُ عَلَى يَقِينٍ بَأَنِّي عَنْهُ مَسْئُولُ  
وَلَيْسَ مِنْ مَوْضِعٍ يَأْتِيهِ ذُو نَفْسٍ إِلَّا وَالْمَوْتُ سَيْفٌ فِيهِ مَحْلُولُ  
لَمْ يُشْفَلِ الْمَوْتُ عِنَّا مَذْ أَعْدْنَا وَكَلُّنَا عَنْهُ بِاللَّذَاتِ مَشْغُولُ  
وَمَنْ يَمِتْ فَهُوَ مَقْطُوعٌ وَبِجَنْبِ وَالْحَيُّ مَا عَاشَ مَشْنُوٌّ وَمَوْسُولُ  
كُلٌّ مَا بَدَأَ لَكَ فَالَا كَالْقَائِيَةِ وَكُلُّ ذِي أَكْلٍ لَا بَدَأَ مَا كُولُ

قال : ثم أنشدني عدة قصائد ما هي بدون هذه ، فصرت إلى أبي نواس فأخبرته فتغير لونه ، وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد ، ولم يقل فيه سوءاً

والذي أراه في ذلك أن أبا العتاهية كان يريد بهذا صرف هذا الرجل عنه ، لأنه كان معتزاً بشعره معتداً به ، وقد قارع به بشاراً وغيره لدى الملوك والأمراء فغاز به قصب السبق ، ونال من صلاتهم وجوائزهم ما لم ينله غيره ، ولو كان يراه دون غيره من الشعر لقمده به في بيته ، ولم يقو أن يقارع أحداً به ما هجر المعتال الصعبري

وشوبهاور وجد أن العقدة الأخلاقية إنما هي عقدة عامة ، جميع الناس فيها سواء . « فلا نسيء لأخيك ، وأعت إخوانك ما اسطمت » . وهكذا تطامن الفلاسفة على هذه العقدة ولم يهزوا شجرتها . وكلهم يجمعوا ليدرسوا رأس الأخلاق وهذا الضمير الخلقى القدى اسططح البشر عامتهم على احترامه والذى لا يزال يسيطر على الأجيال الحالية

أعلن نيتشه الحرب على هذا التبعيد للحقيقة وهذه العبادة لشريعة الأخلاق . وبدلاً من أن يتقبلها قبولاً لا مفر منه ولا وجه لمقابلته بمجدل . رأيناها يقابلها كسألة يدرس وجوهها ويحل سببها ويفترض ما يفترض في سبيل تفهمها . أليس من حقه أن يتساءل « ولماذا كانت الحقيقة خيراً وأحرى ؟ : ولماذا كان الخير أجدر من الشر بالأخذ ؟ » ثم حل هذه المسألة بذات المرأة التي ظهر بها جاعلاً قاعدة الانسان الحر هذه الكلمة المأثورة « لا شيء حقيقى في الوجود ، كل شيء حل للانسان »

وما هذه الكلمات النظرية التي تتردد بمحروف مختلفة وأسماء متباينة دون أن يخرج منها مخرج مبنها إلا كلمات ابتدعتها الخيال ونيتها الوم . أما الحقيقة الجديرة بالنظر ، الحقيقة التي يبنى لنا أن نعرفها فهي حقيقة عالم رغائبنا وأهوائنا . فكل ما تحتوى عليه حياتنا وإرادتنا وفكرتنا هو في الحقيقة نتاج ما فينا من الفرائر الحاكمة . وهذه الفرائر المتفرقة إنما تتشعب بها العجل إلى غريزة واحدة ، لا ترد إلا إليها ولا تصدر إلا عنها . هذه الغريزة هي إرادة القوة ، هذه الإرادة التي تمنينا - لورجبتنا إليها في تحليل جميع مظاهر الحياة التي تحيط بنا وتحيط بها . فكل كائن - سواء كان من عالم الحيوان أو النبات أو الانسان - يسمى إلى بسط سلطانه على غيره من الكائنات حتى يخضع له ما يخضع منها . وإن هذه الحرب القائمة وهذه الجهود الدائمة ، حيث لا تستقر حياة موجود إلا ببسط نفوذها ونشر قواها ، هي الشريعة الأساسية في الوجود ، وفي كل مظاهر الحياة - أنى كانت - ترى الغريزة قائدها وهاديها : فإذا رأيت إنساناً ما يمنح جلبيه إلى حب الفضيلة والفن والحقيقة فهنا الجنوح إنما قام بفضل هذه الغريزة الطبيعية التي أتت من خيرها أن تسلك هذا السبيل ، وهكذا قل في الفضيلة الدينية التي تجد بها بعض

النفوس أقواتها وطعام غرايرها . وفي الحقيقة التي يضحي العالم في سبيلها بأزمى عمره تسوقه إليها إرادة القوة التي تعمل على بسط سلطانها ، ولكن الانسان مال إلى عبادة ما ابتدعه بنفسه « كمثل أعلى » ليتبع حاجة فيه من حاجاته . فبدلاً من أن يقول : سأحيا أنا لاشباع غرايرى ، وسأجحرى عن الخير والحقيقة تبعاً لهذه الشريعة حيث تدفعني إرادة قوتى : قال : إنما الخير والحقيقة شيان يبنى أن يطلبنا لنفصمهما . . . يجب صنع الخير لأنه الخير . ويجب نشدان الحقيقة جاً للحقيقة . وحياة الانسان ليس لها قيمة إلا بقدر ما تنكر من أمانيتها وذاتيتها في سبيل خدمة هذا المثل الأعلى ؛ فلتقتل إذن كل ميولها الغريزية في سبيل هذا المثل ، معتقدة أن الأمانة هي شر كبير وروذيلة خطيرة . على أن هذا الانسان نفسه الذى قدر هذا التقدير إنما تسوقه غريزة - لأن الغريزة هي سائقة النفوس الى ما تعمل - ولكن هذه الغريزة غريزة فاسدة

على أن هذه الفرائر ليست في الناس سواء ، فبعضها معتدلة تعمل على تنمية حياتها وصيانة نموها ، وبعضها فاسدة معتدلة تعمل على إخفاء مادتها الحيوية . وللمثل الجسدية تأثير كبير نبيها قد يتداركها الطبيب قبل أن تُضوى الجسد . وهناك ظل « الشخصية » وهذه الملل أسباب طبيعية . وبحسب هذه الفرائر المختلفة المسيطرة على الانسان يأتي صاحبها صالحاً أو طالحاً ، مثلاً طالياً أو مثلاً سافلاً

إن - هنالك - رجالاً خالصى الأجسام والأرواح يقولون « نعم » للوجود ! هم سعداء ناعمون بحياتهم ، وهم ممن يجسد بالحياة أن تخلد لهم . وهنالك رجال منحطون ضمفاه مرضى قد أظلمت غريزتهم وماتت حيوتهم ، يقولون « لا » للوجود ! - يجنحون إلى الموت والفناء ، لا غاية لهم يتحرون عنها ، وليس لهم - والحالة هذه - أن يتحروا عن بقائهم في الوجود ، وهذه سنة طبيعية تنطبق على الحياة التي لا تنمرد ، والحياة - في كل صقع - سائرة في طريق التقدم أو في طريق الانحطاط . والانسان فيها مثل غرسة ، طوراً تحيا ذابلة بائسة ، وطوراً تتفتح مشرقة زاهية ، تسو منها فروع عالية